

الدنيا وزخرفها والآخرة ونعمتها



يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِطُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللّٰهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَهَمُكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ رُزْمُ الْمُقَابِرِ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوْنَ الْجَحِيْمَ * ثُمَّ لَتَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، وقال تعالى في الآخرة: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيْمٍ * يَصْلُوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾.

معادلة عجيبة شطرها مشهود ومعلوم ومرئي وموصوف فيه خلق الإنسان، يعايشه ليل نهار يعافسه وتعافسه وهو في حالة صراع دائم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبِدٍ﴾، يكابد فيها ابن آدم ليل نهار حتى يأتيه اليقين، وهو في سيره في الحياة الدنيا يرى هذا اليقين (الموت) يأتي غيره في سيره، يرى هذا اليقين ولكن عينه على الزينة والتفاخر والتكاثر، قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ الْرُّثَاثَ أَكْلًا لَمَّا * وَتُحْبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، يعيش اليقين في غيره ولكنه لا يستشعره في نفسه قبل أن يأتيه اليقين فيغلبه على هواه ويصدمه قبل أن يلقاه، ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّ﴾... هذه غيبة البصيرة تصيب البصر بغشاوة عن إدراك حقيقة مرئية محسوسة ملموسة ليست خيالاً متصوراً ولا حقيقة مغيبة، وإنما واقع ملموس محسوس. ولو أدركها هذا الإنسان لعاش في دنياه بشفافتها وبؤسها، وشقائها ولؤمها، وضيقها وسعادتها، لأنه أدرك معناها وعاش مغزاها فأعد لها ما يعتد من زاد لا يزول ولا يحول، سهل حمله ثقيل ميزانه، ﴿وَتَرَوَّذُوا فِيَّ حَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ﴾.

هذه معادلة الدنيا تكشف عن قانون فيزيائي طبيعي؛ أن الثمين والمتيقن والقوى والثمر والمعنى هو ما يكون ثابتاً لا يتزحزح ولا يتغير ولا يتتحول ولا تذروه الرياح، ﴿كَشَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُعَهَا فِي السَّمَاءِ * ثُوْقٌ أَكْلَهَا كُلٌّ حِينٌ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾. ولذلك تكشف هذه الحقيقة الفيزيائية عن قاعدة أن الثمين لا يكون مكشوفاً ولا يكون سطحياً ولا تذروه الرياح، وهو عصي عن الاكتشاف والانكشاف لأنه ضارب في جوف الأرض، حتى تصل إليه تحتاج إلى جهد وعناء وبذل وعطاء وتزاحم على كتب الأنبياء والعلماء، ففي جوف

البحار تسكن الكنوز والأحجار الكريمة وعلى سطح الماء تطفو الجيف والزبد ﴿فَأَمَّا الرَّبُّدُ فَيَذَهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾.

هذه تكشف عن قواعد الفهم السليم والفهم السقيم؛ الفهم السليم هو القائم على العقيدة السليمة والعقل النظيف غير الملوث، والذي يقرأ الواقع فيحلله ثم ينزل حكم الله عليه فإذا ما يحييه أو ينفيه. وأما الفهم السقيم فهو الفهم السطحي المتلون المتغير الذي تأخذه رياح الهوى يمنةً ويسرةً فلا ثابت له ولا حقيقة يستقيها، يميل حيث يميل الناس، فهو كزبد البحر تذروه الرياح ويطفو على السطح ولكنه لا يفيد إن لم يكن فاسداً مفسداً.

وفي الواقع السياسي الذي نراه ونرى صورته حقيقة مصورة لا تشوهها شائبة أن الذين تسيّدوا المحراب والكراسي وسادوا فدانت لهم الرقاب هم زيد البحر وزوان الحبوب الذي لا يصمد لمناظرة ولا ساحة جدال. فهم جفاء تذروه الرياح لا جذر لهم ولا رواسي ثابتات. وهؤلاء هم الذين حذروا منهم رسول ﷺ لما يحملونه من بلاء عظيم وشر مستطير لا يثمرون ويقومون مفسدين أينما حلوا وارتحلوا، وقال تعالى عنهم: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ قَاتَلُهُمُ اللَّهُ أَنَّ يُؤْفِكُونَ﴾، وقال ﷺ محدراً ومتوعداً من هذا الشر السطحي البارز الواضح ومتوعداً من بلائه الذي سيطال الشجر والحجر والبشر: «إِذَا وُسِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» أي انتظروا شرًّا مستطيراً وبلاءً ليس له نظير، تتعود منه الجبال الراسيات والكنوز في مخابئها و تستعيد من شره حيتان البحر وبه قال الله تعالى: ﴿ظَاهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ إِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ وقال ﷺ: «صِنْفَانِ مِنَ النَّاسِ إِذَا صَلَحَ النَّاسُ، وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَ النَّاسُ: الْعُلَمَاءُ وَالْأَمْرَاءُ» والناس هنا ليس كل الناس بل الناس في الروايتين هم الصنفان اللذان حددهما الرسول الكريم ﷺ.

كتبه لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

سالم أبو سبيتان